تقديم د. عمرو شريف

يقول الرسول الكريم ﷺ: **«إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يُجدد لها دينها»**[1].

دار فى خاطرى هذا الحديث الشريف وأنا أدرس كتاب: **«تطور الأديان: نظرية جديدة فى منطق التحولات»** لفيلسوف الأديان الكبير د. محمد عثمان الخشت، وذلك تمهيدًا لكتابة هذا التقديم.

ولك الحق أيها القارئ الكريم أن تتساءل: هل ترى أن د. الخشت قد وصل بهذا الكتاب إلى هذه المنزلة؟

أجيبك، بأن الكتاب قد أضاف إلى رؤيتى للديانات أبعادًا وأعماقًا جديدة لم تكن عندى. لم تتناول هذه الإضافات عقائد وشرائع فى محتوى الديانات، لكنها تناولت مفاهيم منهجية جوهرية، شكلت بالفعل نظرية جديدة **وضعت الكتاب وصاحبه فى موضع المجدد فى دراسة الأديان.**

ولا أكون مبالغًا، إذا قلت إننى قد خرجت من هذا الكتاب بفهم أكثر عمقًا للديانات بصفة عامة، وللإسلام بصفة خاصة، و إننى - بالكتاب - قد ارتقيت فى إيمانى كيفًا وكمًا.

---

(1) أخرجه أبو داود فى كتاب الملاحم، والحاكم فى المستدرك، والبيهقى فى معرفة السنة والآثار، والخطيب فى تاريخ بغداد - صححه السخاوى والألبانى.

فنظريات نشأة الأديان وتطورها قد نحت مناحى شتى؛ فنجد نظريات التحليل النفسى، والتفسير الطبيعى، والتفسير الإحيائى أو الحيوى، والتفسير «ما قبل الحيوى»، والتفسير الاجتماعى، والتفسير المثالى المطلق؛ وهذه جميعًا تطرح **مفهوم تطور الأديان** من تعدد الآلهة إلى التوحيد. كما توجد نظريات **«التوحيد أولًا»**، التى تتبنى أن البشرية أول ما بدأت، بدأت بالتوحيد، الذى تَكَشَّف لها إما بالتأمل النظرى أو بالوحى الإلهى.

وينطلق كل من هذه النظريات من حالة دينية معينة ويغفل عن الآخريات، فكانت كمن ينظر إلى بقعة محددة من لوحة فنية كبيرة، فلم يدرك منها إلا مزيجًا من الألوان يخلو من المعنى، وغابت عنه اللوحة ككل، وغفل عما تعكسه من معانٍ ودلالات وإشارات وظلال.

ويتحرر د. الخشت من هذه النظريات التجزيئية القاصرة، التى اكتفت بأن تجعل من علوم الأديان علومًا تاريخية استردادية وصفية، وارتقى بها لتصبح **«علومًا نقدية فلسفية»** تعتمد على الوصف العلمى، والتحليل الفلسفى، والنقد العقلى والمنطقى والتاريخى والشكلى، وعلم الأنثروبولوجيا، وعلم الاجتماع الدينى، وعلم النفس الدينى، وغيرها من العلوم، ليُخرج لنا فى النهاية **سبيكةً فكرية روحية كاملة الامتزاج**، تُمتع القارئ المثقف، وتدخل به فى آفاق علوم شديدة التخصص والعمق بلغة واضحة راقية فى سهولة ويسر.

وقد اتبع د. الخشت **منهج دراسة الديانات وتحولاتها فى الوعى والعقل الإنسانى لا فى التسلسل التاريخى**، أى أنه اتبع منطق التطور العقلى لا منطق التطور التاريخى.

ويخرج د. الخشت بأن منطق التطور العقلى للديانات يسير من الكثرة إلى الوحدة ومن المحسوس إلى المعقول ومن العينى إلى المجرد، ساعيًّا فى النهاية إلى الواحد المطلق الكامن فى فطرتنا ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: 172]. إنه منهج تمثل بحق فى نظرية جديدة فى علوم دراسة الأديان، وصفها د. الخشت بأنها «**نظرية جديدة فى منطق التحولات**» من مفاهيم بدائية مادية إلى مفاهيم التوحيد السامى والمتعالى.

(أ)

لأهمية النظرية التى يطرحها د. الخشت، وعمق تأثيرها فى فلسفة الأديان وفى النظرة إلى الإسلام، وأيضًا تأثيرها فى منظومتى الإيمانية، رأيت أن أوجز فى استهلال مقدمتى هذه النظرية فى تطور النظرة الدينية فى الوعى والضمير الإنسانى. ويعرض فيلسوف الأديان الكبير د. الخشت النظرية فى فصل الكتاب الأول (منبع الأديان وتطورها)، ويسوق عليها الأدلة عبر فصول الكتاب الثلاثة الأخرى.

ويمكن تلخيص طرح د. الخشت لنظريته فى النقاط التالية:

1) لا نزال نجد فى عالمنا المعاصر نماذج من الديانات الطبيعية والتشبيهية البدائية، متناثرة فى قارات العالم.

وترينا نظرة متأملة لتلك الديانات، ومقارنتها ببعض الديانات الكبرى، أن معتقدات الكثير من معتنقى الديانات السائدة تنطوى على عناصر قديمة طبيعية وتشبيهية وشركية.

وتؤكد هذه المقارنات أن تصور الألوهية **يتطور فى الوعى الإنسانى**، وفى الوقت نفسه يتعرض فى أحيان كثيرة **لنكوص إلى الخلف**، ثم يعاود التقدم، ثم يرتكس مرة أخرى، وهكذا. وتنطوى بعض الحالات على نوع من الازدواجية، فتجمع بين الارتقاء فى جانب والارتكاس فى جانب آخر، كأن تجمع بين التوحيد وبين التشبث بالخرافة. لكن النتيجة العامة فى معظم الحالات هى تقدم الوعى الدينى الإنسانى نحو التوحيد.

ويخرج د. الخشت بأن هذا المسار التطورى للدين **يتفق مع الفلسفة**، إذ ليس ثمة قانون ثابت يحكم تطور كلا النشاطين.

2) يقارن د. الخشت تطور النظرة الدينية بتطور العلم، ويخرج بأن **فهم منطق تطور العلم أيسر من فهم منطق تطور الدين**. ولا يرجع ذلك إلى دقة العلوم وعدم دقة الوعى الدينى، بل يرجع إلى أن موضوعات العلم أقرب منالًا للبحث بحكم طبيعتها المادية، أما موضوعات الأديان من الظواهر الروحية والميتافيزيقية فهى أبعد منالًا بحكم تعلقها باللامحسوس. علاوة على أن الظواهر الدينية لا تحكمها الضرورة المادية التى تحكم الظواهر الطبيعية، بل تلعب فيها الحرية دورًا كبيرًا.

فإذا نظرنا إلى تطور الدين على المستوى العقلى؛ يبين د. الخشت أن العقل الإنسانى مثلما ينزع نحو وحدة المعرفة فى العلوم، فينتقل من المبادئ التى يفسر فى ضوئها الطبيعة إلى قوانين عامة وراء الظواهر، ويحلم بالتوصل إلى النظرية الموحدة (M) وراء كل العلوم، فإنه **ينزع إلى وحدة الألوهية فى الدين**.

و إذا كان العلم يتطور فى العقل والتاريخ معًا، أى يتقدم فى العقول مع مرور الوقت، باعتباره ظاهرة تراكمية، فإن الدين ليس كذلك، إذ يمكن

أن يتعـرض كـما ذكرنا لانتكاس وانحدار وقد يموت. و إذا كان من العسـير الكشـف عن **منطق محكـم لتطور الأديـان** فى التاريخ، فليـس من الصعب تحقيق ذلك فى العقل.

وكلـما تخلص العقل من الأطروحات الخرافية فى تفسـيره للطبيعة، وكلما استند إلى مبادئ النظام الداخلى فيها ذات القوانين المحكمة، وكلما تحرر من نظـرة العقل البدائى إلى الكون كمسرح للعرائس تمثل فيه الخيوط الواسـطة بين الفاعـل والمفعول به، أقول: كلما حدث ذلك كلـما حقق الدين التطور الصحى المحمود، الذى يتمثل فى **الارتقاء من الكثرة إلى الوحدة**.

لذلك كله، فالظاهرة الدينية أكبر وأعقد كثيرًا من الظاهرة العلمية. ومن ثم إذا كانت البشرية قد توحدت حول العلم الواحد (طبيعى ورياضى) فإنها **لا يمكـن أن تلقـى على الدين الواحد**، وسـيظل الخلاف بـين الناس ما دامت الحياة على وجه الأرض.

3) يتماشى د. الخشـت مـع الرأى الغالـب فى علـوم الأنثروبولوجيا، من أن **تطور الدين فى الوعى الإنسـانى بدأ بديانات التعدد**، فاسـتهلها بالديانات الطبيعيـة التـى يؤله فيهـا الإنسـان مظاهر الطبيعـة، ثم ارتقـى إلى ديانات التشـبيه، التـى عبد فيها الإنسـان آلهـة ذات مواصفات إنسـانية أعلى قدرة، وتتراتبـت هـذه الآلهة ترتيبًـا هرميًّا يقـف فى أعلاه الإله الأكـبر. ثم ارتقى الوعى الإنسانى إلى أديان التوحيد المتعالى، وفيها يرتقى التوحيد غير الخالص إلى التوحيد الخالص، و يرتقى من الإله القومى إلى الإله العالمى، ومن التوحيد المعقد الملغز إلى التوحيد الواضح الصرف.

و ينبهنا د. الخشـت إلى **أن تطـور العقل الدينى التدريجـى من الكثرة إلى**

الوحـدة قد صحبه انتقال آخر من المحسـوس إلى المعقـول، ومن النهائى إلى اللانهائى، ومن الجزئى إلى الكلى، ومن العينى إلى المجرد.

4) يلفتنـا د. الخشـت إلى أن تطور الوعى الإنسـانى من الأديـان الجزئية الغامضة، التى تخلط بين الإلهى والإنسـانى، إلى دين التوحيد الكلى والواضح و إلى الألوهية المتعالية المنزهة، أى الدين الذى يمثل الطور الملائم لإنسـانية ناضجـة، قـد صاحـب ذلـك تحول مـن نوع آخـر، إنـه **التحـول فى منطق الاستدلال.**

ففـى المنهـج الاسـتدلالى على صـدق الدين، ارتقى الإنسـان مـن منطق الأسطورة إلى منطق الواقع، ومن منطق الحس إلى منطق البرهان العقلى، ومن الاستدلال بخوارق الطبيعة إلى الاستدلال بنظام الطبيعة، ومن منطق الحواة إلى منطـق عدم التناقض، ومن المعجزات الحسـية إلى المعجـزة البيانية، ومن المعجزات المؤقتة إلى المعجزة المسـتمرة، ومن الكتاب الذى يلتمس دليلًا من خارجه إلى الكتاب الذى يلتمس دليلًا من داخله، ومن توحيد غامض يعتمد على التسليم إلى توحيد مطلق مستند إلى الاستدلال البرهانى، ومن منطق آمن ثم تعقل إلى منطق تعقل ثم آمن.

ويمكن تلخيص ما اعترى الوعى الإنسانى من تطور فى النظر إلى الألوهية و إلى الدين وأيضًا تطور منهج الاستدلال فى الجدول التالى:

أديان التعدد وأديان التوحيد.
المسيحية والإسلام

أديان التعدد	أديان التوحيد
الطبيعية ـ التشبيهية	**المتعالى**
صفات الإله	
موجودات الطبيعة	ليس كمثله شيء
وصفات إنسانية	
ترتيب هرمى	توحيد مطلق
آلهة قومية	إله عالمى
ألهة محسوسة	إله معقول
عينى	مجرد
جزئى	كلى
متناهٍ	لا متناهٍ
منطق الاستدلال	
منطق الأسطورة	منطق الواقع
منطق الحس	منطق البرهان العقلى
الاستدلال بخوارق الطبيعة	الاستدلال بنظام الطبيعة
منطق الحواة	منطق عدم التناقض
المعجزات الحسية الوقتية	المعجزة البيانية الباقية
كتب تلتمس دليلًا من خارجها	كتاب يلتمس دليلًا من داخله

المسيحية والإسلام	
توحيد معقد ملغز غامض	توحيد واضح صرف
يعتمد على التسليم	يعتمد على البرهان
آمِن ثم تَعَقَّل	تَعَقَّل ثم آمن

5) **قد يتحول دين الوحى نفسه إلى دين وضعى** عندما يدخله التحريف ويتلون بالظروف التاريخية وتنتكس فيه الأولويات ويغيب مقصده الكلى ويفقد مضمونه الروحى ويتحول إلى سلطة ومؤسسة كهنوتية. فيركز الدين على الطقوس والشعائر أكثر مما يركز على نقاء الضمير والفضيلة واتساق الظاهر والباطن، ويركز على الشكلى السلطوى والقهرى أكثر مما يركز على الجوهرى والعقلى وحرية الاختيار، وذلك نتيجة ضلال أتباعه وتغليبهم للمصلحة الذاتية تحت ضغط الصراع على السلطة الاجتماعية والسياسية.

ويقع ذلك كله نتيجة للخضوع لقانون التطور الذى يحكم مسيرة الحضارات البشرية، وما تمر به من نمو ثم انحدار واضمحلال، **وبذلك ينفسح المجال لدين جديد**، وهكذا.

وعندما يبلغ الوعى الدينى نضجه، ويتحول التوحيد إلى عقيدة بلا أسرار، قد تطرأ عليه عناصر شركية وضعية فى مراحل اضمحلاله، عندها لا يكون الإنسان بحاجة إلى دين جديد، لأن الدين الناضج موجود، ولكن المشكلة هى انحراف وعى أتباعه، ومن ثم يكون الدين بحاجة إلى فهم جديد يخلصه من العناصر الوضعية فيه، أى **بحاجة إلى من يجدد له أمر دينه**.

6) إذا كان **تصور الألوهية** ضرورى للدين من حيث هو دين، فهذا التصور يختلف من دين إلى آخر بين مجموعات الديانات الطبيعية والتشبيهية والتوحيد المتعالى، بل وداخل المجموعة الواحدة، لذا تعددت الفرق العقائدية داخل كل دين. لكن هذه الفرق تتفق جميعها من حيث **حالة الإنسان تجاه الإله**، إنه الشعور بالضعف وإلحاحية الحاجة، والقلق من أحداث الحياة، ولا يزال يحركه الخوف ويداعبه الأمل. ويظل هناك فرق جوهرى رئيس؛

هو أن **الإله الواحد يوحد شعور الإنسان ومقصده**، وينقذه من حالة تمزق الهوى، كما ينقذه من تشتت الهم وتأرجح الوجدان، بحيث لا يعود يتوجه إلا إلى الله الواحد الأحد.

7) يتمايز الإسلام وحده عن كل الديانات الأخرى (سواء الطبيعية أو التشبهية أو ديانات التوحيد المتعالى) فى أنه هو الدين المطلق المتحرر من التصورات الطبيعية والإنسانية والحلولية فى النظر إلى الألوهية. ومع ذلك، فقد نفخ الله فى الإنسانية من روحه، فهو منبع الحياة العاقلة، ولكن ليس معنى هذا وحدة الإنسانى والإلهى، فمستويات الوجود متمايزة: الإلهى - الطبيعى - وبينهما الإنسان البرزخ.

بذلك خَلَّصَ الإسلام عقيدة الألوهية من كل ما علق بها من تصورات تخلط بين الإله وبين الطبيعة أو تشبهه بالبشر، أو تربط بينه وبين أى مستوى من مستويات الوجود، فهو ليس كمثله شىء.

هذه أهم عناصر نظرية د. الخشت فى تطور النظرة الدينية فى الوعى الإنسانى، تلك النظرية التى أدركتُ عندما درستها كيف أن العقيدة الإسلامية تمثل بحق ذروة ما يمكن أن يصبو إليه الوعى والفكر الإنسانى فى قضية الألوهية والدين، **ومن ثم كان منطقيًّا أن يكون الإسلام هو خاتم الديانات السماوية**.

بعد هذا التلخيص لنظرية د. الخشت فى تطور الأديان، اخترت أن أوجز فى هذا التقديم **عددًا من المشكلات التى تشغل بال المهتمين بالديانات** والتى عالجها د. الخشت فى كتابه أفضل معالجة.

(ب)

في مواجهة **الموجة الإلحادية المعاصرة** في بلادنا، تجمع لدينا من الأدلة العلمية والفلسفية على الوجود الإلهي ما لا يستطيع منصفٌ باحثٌ عن الحقيقة أن يغفله. وكرد فعل لذلك، قَلَّبَ الملاحدة في أوراقهم القديمة، فوجدوا ضالتهم فيما يُعرف **بموقف «الربوبيين»**، الذي تبناه أرسطو في الفلسفة اليونانية القديمة كما تبناه كفار مكة وقت بعثة الرسول الخاتم ﷺ. ويُقر الربوبيون بوجود الإله لكنهم يرفضون أن يكون قد تواصل مع البشر من خلال الديانات السماوية، وبهذا الطرح يتخلصون من تكاليف الديانات التي يأبون الخضوع لها. وإذا سقنا لهؤلاء الأدلة العقلية والفلسفية على تواصل السماء مع الأرض، تحججوا بأن أصحاب كل دين يعتبرون أن دينهم هو الصواب وأن الديانات الأخرى خطأ، ومن ثم تصبح كل الديانات ادعاءات وأكاذيب.

يطرح الموقف السابق سؤالًا مهمًّا؛ إذا كان كل صاحب دين قد نشأ وتربى على صحة مفاهيمه الدينية، فهل هناك **«مقاييس موضوعية»** يمكن الاحتكام إليها لتقويم الدين الحق، أم ستظل النظرة إلى الديانات دائمًا نظرة نسبية؟

تحتاج الإجابة عن هذا السؤال إلى نظرة تحليلية عميقة للديانات فى الوعى الإنسانى، عبر التاريخ وعبر الجغرافيا، حتى نستخلص منها المفاهيم المحورية التي يقوم عليها كل دين، ومن ثم يمكن تقويمها بأسلوب موضوعي. عندها تتلاشى حجة الربوبيين، ويبرز من بين الديانات ما يمكن وصفه بالمنظور العلمي بـ «الدين الحق».

من هنا تبرز أهمية الكتاب الذي نقدم بين يديه في هذه المرحلة الحرجة من حياتنا الفكرية والدينية.

ففيلسوفنا الكبير **د. محمد عثمان الخشت** لا يكتفي في كتابنا هذا باستعراض أهم السمات المميزة للديانات السائدة بين البشر (الفصول الثاني والثالث والرابع)، بل ويقوم بتأصيل السمات الموضوعية للدين الحق (الفصل الأول: منبع الأديان وتطورها)، حتى يتمكن القارئ من القيام بنفسه بعملية تطبيق وقياس ومقارنة بين الديانات.

(ج)

ومما يزيد من أهمية الكتاب في هذه المرحلة، أن كل مهتم بالشأن الديني يربكه ما يجد من تعارض بين طرح الديانات الإبراهيمية، من **أن الإنسان (آدم** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ**) قد عرف التوحيد منذ نشأته**، وبين التصور المشهور في علوم الأنثروبولوجيا وتاريخ الأديان من أن **الإنسان البدائي قد تبنى تعدد الآلهة** ثم تدرج في الترقي حتى وصل إلى التوحيد في آخر المطاف.

فالقرآن الكريم يؤكد أن الحالة الأولى للدين هي التوحيد، الذي لم يكن باستنباط أو تأمل أو نتيجة للخوف من المجهول أو لسبب من الأسباب الاجتماعية أو النفسية، بل كان نتيجة مباشرة لمعرفة الإنسان الأول (آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ) بالله خالقه، على نحو مباشر وبدون واسطة.

ثم أعقب هذه الحالة التوحيدية حالةٌ شركية وثنية واختلافٌ بين الناس في العقائد، عندها احتاجت البشرية للأنبياء ﴿...فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ...﴾ [البقرة: 213]، وإن كان القرآن الكريم لم يحدد مقدار الفترة الزمنية التي عاشت البشرية فيها على التوحيد الأول.

ويبين القرآن الكريم أن أبا الأنبياء إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قد سمَّى كلَّ من

يـأتي بعده و يؤمـن باللـه بـ«المسـلمين» ﴿...مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ...﴾ [الحج: 78].

و يميز القرآن الكريم بين أديان باطلة أصابها التحريف و بين الدين الحق ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخـرف: 45]، ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ ...﴾ [النحل: 36].

لذلـك **فدين الأنبيـاء واحد من حيـث العقيـدة، أما الشرائـع فمختلفة ومتنوعة**. وتظهر وحـدة العقيدة في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ ...﴾ [الشورى: 13].

وللخـروج من تعـارض الطـرح العلمى بـ**«تطـور الديانات»** مـع مفهوم **«التوحيـد أولًا»** الـذى تطرحه الديانات السـماوية، بَيَّن دَ. الخشـت أن **علوم الأنثروبولوجيـا وتاريـخ الأديان لا تدرك مرحلـة آدم «الغيبية»**، وأن بدايات هـذه العلوم ترجع إلى مرحلة التعدد التى أعقبـت التوحيد، ذلك التعدد الذى يتبنى الطرح الدينى أن البشرية قد دخلت فيه بعد فترة نبى الله نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. و يؤكـد هذا المعنى ما نجده من **«توافق»** بين ما وصلت إليه الديانات فى ذروة تطورها و بين ما جاء فى الكتب السماوية عن الألوهية والدين.

(د)

يتبنى «الطرح المادي» أن الأديان من وضع الإنسـان، ومن ثم فالإنسـان هو الذي خلق الإله وليس الإله هو الذي خلق الإنسان!!

ويدور هذا الطرح ـ مع تنوعه ـ حول محور واحد، هو أن الديانات إسقاط (تجسيد) لرغبات الإنسان التي يحلم بها **(نظرية الإسقاط Projection Theory)**، ومن ثم فالديانات ليست **إلا تحقيقًا لهذه الرغبات Wish Fulfillment**.

ويُعتبر عالم الأنثروبولوجيا والفيلسوف الألماني **لودفيج فيورباخ** الأب الفعلي لنظرية الإسقاط. فهو يتبنى أن الديانات تُشبع فى الإنسان الرغبة في الخلود والاتصاف بالكمالات، ومن ثم فهي تعبير عن رغبة الإنسان في تأليه ذاته.

ويلتقط النمساوي **سيجموند فرويد** (مؤسس مدرسة التحليل النفسي) خيط الإسقاط من فيورباخ، فيعتبر أن نشأة الأديان تقوم على أساسيين نفسيين رئيسيين؛ الخوف من الطبيعة (كعنصر خارجي) والشعور بالذنب (كعنصر داخلي).

ويُرجع **كارل ماركس** نشأة الدين إلى «صراع الطبقات»؛ فالدين عند ماركس شكلته الطبقات الحاكمة والأغنياء، لتحقيق المنافع الاقتصادية وليحموا مصالحهم وأنفسهم من ثورة الفقراء، لذلك شاعت عن ماركس مقولة: «الدين أفيون الشعوب».

وفي المقابل؛ يتبنى أشهر ملاحدة العصر الحديث الفيلسوف الألماني **فريدريخ نيتشة** أن العبيد هم الذين اخترعوا الديانات (عكس ماركس!!) من أجل أن تُعلى منظومتها الأخلاقية من وضاعة منزلتهم وانكسارهم وضعفهم، وتضع الرحمة بالفقراء في قلوب الأقوياء ، فيتحصلون على ما لا يحق لهم!

ويتبنى الفيلسوف وعالم الرياضيات البريطاني الشهير **برتراند رَسِل** أن

الخـوف يقف وراء نشـأة الدين، ومـن ثم فإن «الرغبـة في الأمان» هي دافع الإنسان لوضع الديانات.

وتَسـقط هـذه الأطروحـات الماديـة ـ وغيرهـا ـ في قصـور خطير، فقد طُرحـت هذه الفرضيات للإجابة عن سـؤال افتراضي خطـأ! وهو ؛ **لمَّا كان الإله غير موجود، فما تفسير وجود الأديان؟**

إن هذا السؤال مقبول، ويمكن أخذ الأجوبة عنه بعين الاعتبار، إذا كان هـؤلاء الماديـون قد درسـوا قضية الوجود الإلهـي وفَنَّدوها بمـا يدحض أدلة المؤمنين على الألوهية. لكن الحقيقة أن أطروحاتهم كلها قد خلت من إثبات المقدمة الكبرى التي انطلق منها تساؤلهم!! وهي إن الإله غير موجود.

ولا شـك أن من الخطـأ البَيِّن اعتبـار أن الديانات تحقق للإنسـان رغباته، **فالديانـات تتعارض مع رغبات الإنسـان الحقيقية المبـاشرة**، فهي تفرض عليه تشريعـات تَحرِمَه مـن المتع الحياتية وتفـرض عليه تضحيات كثـيرة بالوقت والجهـد والمال، وتطالبه بالامتناع عن سـلوكيات غريزية جُبِلَ عليها، وذلك كله مقابل وعد بالجنة والخلود لا يدرى الإنسان إن كان وعد صدق أم لا!!

وبالإضافة للسـلبية الرئيسـية السـابقة، ينطلـق الطرح المـادي من أن الإلـه والدين **يحققان للإنسـان الفائدة، ومن ثم فقـد اخترعهما**!! لا أدري؛ هـل كان ضروريًّـا أن يكون الدين بلا فائدة حتى يقتنـع الماديون بألوهية مصدره؟!!.

وأخـيرًا، يتجاهل الماديون أن **قدرة الإنسـان على فعـل شيء ما، أو كون هذا الشيء يحقق له فائدة، لا تعني بتاتًا أنه قد قام بذلك الفعل**. فقدرتك على قتل أبيك واستفادتك بميراثه لا تعنيان أنك قد قتلته فعلاً.

و يتصدى فيسلوف الأديان الكبير د. محمد عثمان الخشت بحسم، في كتابه الذي بين أيدينا، للأطروحات المادية السابقة حول نشأة الأديان ؛ فيؤكد **أن الدين منظومة تتناسب مع طبيعة الفكر الإنساني الصحيح**، الذي لا يكتفي بأن يفكر في المادة والحس، بل يقفز منهما إلى عالم المجرد، وهذا ما لا تقترب منه الأطروحات المادية.

و يسخر د. الخشت من موقف الملاحدة حين يقولون؛ «لا ينبغي أن يكون هناك مثل هذا الانتقال من المادي إلى المجرد؛ ومن ثم لا ضرورة للدين»، فيعتبر د. الخشت أن لسان حال الملاحدة ـ بهذا الطرح ـ يقول: **إنه لا ينبغي أن يكون هناك تفكير**!! حيث إن التفكير هو الانتقال من المحسوس إلى المجرد من أجل الوصول إلى العلة الكافية للوجود، بعد أن أدرك الإنسان عدمية الوجود المادي وقصوره عن تقديم الأجوبة عن تساؤلاته». و يشتد د. الخشت في سخريته فيقول: «الواقع أن الحيوان لا يقوم بمثل هذا الانتقال ولا يرتفع مطلقًا عن مستوى المادى المحسوس، ولهذا فإنه بغير دين».

(هـ)

ينظر الكثيرون للأديان باعتبارها منظومة تحقق للإنسان إشباعًا في عدة جوانب من بنائه ؛ العقلي والأخلاقي والمادي والروحي الميتافيزيقي، وفي الوقت نفسه يتبنون أن هناك **منظومات بديلة** يمكن أن تحقق بعضًا من هذه الجوانب من الإشباع، ومن ثم يعتبرون أنها تصلح كبديل للدين.

يطرح فيلسوفنا الكبير د. الخشت هذه القضية للتحليل، فيتبنى في مبحث من الكتاب بعنوان: **علاقة الدين بالفلسفة**، أن هذه العلاقة اتخذت أشكالًا

متعددة في المراحل التاريخية المختلفة، حسب رؤية علماء الدين للفلسفة من ناحية، وحسب رؤية الفلاسفة للدين من ناحية أخرى. لذلك اتخذ الفلاسفة مواقف متباينة تجاه الموضوعات المشتركة بينهم وبين الدين؛ مثل الألوهية والوحى والخلود... إلخ؛ من هذه المواقف ما يتفق مع الدين ومنها ما يختلف معه بدرجة أو بأخرى تتفاوت من فيلسوف لآخر.

ويخرج د. الخشت فى كتابه بقناعة؛ بأنه إذا كانت الفلسفة تحقق إشباعًا عقليًّا للإنسان، فإن **هذا الإشباع يختلف في جوهره عما يقدمه الدين**، حتى فى مجالات اتفاقهما.

و إذا كان **أوجست كونت** قد اعتبر أن الميتافيزيقا قد حلت محل الدين، كما اعتبر أن العلم الوصفي تجاوز الاثنين، فإن د. الخشت يقدم في كتابه (مبحث ؛ هل يمكن أن تحل الميتافيزيقا محل الدين؟) أدلة تهافت هذا الرأي، ويؤكد أن الميتافيزيقا لا يمكن أن تقوم بهذه المهمة، ويجب أن تتوقف عن البحث في الطبيعة الإلهية المجاوزة للعقل الإنساني، وأن تكتفي بالبحث في الإنسان والعالم ككل، لتكوين رؤية علمية تحقق بها وحدة المعرفة، وتصلح كمنظومة تستند عليها العلوم. وفى الوقت نفسه يؤكد د. الخشت أن هذه المنظومة لا ينبغي أن تتحول إلى مذهب مغلق يقف كعائق أمام تطور العلم المستمر.

أضف إلى ذلك، أن الفلسفة لا تتناول غاية الدين المحورية، وهى بيان ما ينبغى أن يكون عليه سلوك الإنسان حتى يحقق الخلود فى حياة أبدية مُنَعَّمة، وهو فرق لم يُوَلِّه معظم الفلاسفة الذين قارنوا بين الفلسفة والدين اهتمامهم.

القارئ الكريم

عرضت عليك فى هذا التقديم تلخيصًا لنظرية أستاذ فلسفة الأديان الكبير د. محمد عثمان الخشت حول تطور الأديان، كما عرضت كيف عالج فيلسوفنا الكبير بعض أهم المشكلات التى تشغل كل المهتمين بالأديان، مما جعل من هذا الكتاب بحق كتابًا فريدًا، يسد نقصًا مُخِلاً في المكتبة العربية، ويتصدى بجسارة لاتجاهين فكريين متضادين!! التيار الإلحادي الذي يأتنس بالرؤية المادية، التي تتبنى منظور تطور الأديان باعتبارها منظومات من اختراع الإنسان، وكذلك التيار الديني الرجعي الأصولى الواقع في قبضة الكهنة المنتمين كذبًا إلى رجال العلم الدينى.

إن هذا الكتاب يزيل الخوف والرهبة والتوجس من نفس المثقف المتدين، تلك المشاعر التى تثور كلما طُرح أمامه موضوع نشأة الديانات وتطورها أو موضوع المقارنة بين الأديان، إذ يظن أن هذه العلوم تطرح ما يتعارض مع دينه أو ينتقص منه، وأنها قد تقذفه فى بحر لا قِبَلَ له به. وعلى العكس، فإن الكتاب - كما ذكرت فى البداية - قد زادنى يقينًا بدينى، ذلك اليقين الذى لا يحققه إلا التوافق بين العلم والفلسفة والدين، والذى جعلنى أستحضر عند دراسة هذا الكتاب حديث رسولنا الكريم ﷺ حول أن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل قرن «بطائفة» ممن يجددون لها أمر دينها.

د. عمرو شريف

مقدمة الطبعة الثانية

ينظر المؤمنون بالأديان بريبة شديدة إلى نظريات التطور، بل يرون فيها تعارضًا مع الدين وخروجًا عليه، ويتصورون أن الدين ظاهرة إلهية، وأن كل ما هو ذو منبع إلهي لا بد أن يكون ثابتًا، وأن الأعمال الإنسانية هي التي تخضع وحدها لمنطق التطور!

وعلى الجانب الآخر، فإن التطوريين عندما يثبتون أن الدين ظاهرة خاضعة لمنطق التطور، يتصورون أنهم بهذا يثبتون بشرية الدين المطلقة.

وهكذا كأن هناك مسلمة يتفق عليها الفريقان المتصارعان دون أن يكونا على وعي بهذا الاتفاق، وهذه المسلمة هي «أن كل عمل إلهي غير خاضع لمنطق التطور»!

ويثبت هذا الكتاب بطلان هذه المسلمة التي يستند إليها فريق المتدينين وفريق التطوريين، وهنا ربما تكمن أحد جوانب جدة الطرح المقدم في الصفحات التالية من فصول الكتاب التي تتصاعد أفكارها محاولة الوصول إلى أفق مختلف، وقد تعلمنا من فلسفة العلم وتاريخه أنه لا يمكن أبدًا الوصول إلى منظور ورؤية جديدة، دون الانطلاق من «فرض» جديد، وغالبًا ما يكون هذا الفرض بسيطًا ومخالفًا لتعقيدات المسلمات القديمة، وما

يترتب عليها من إشكاليات، كما يكون هذا الفرض مخالفًا لما اعتاد الناس عليه، و إذا ما ثبتت صحة الفرض بواسطة الوقائع، تحول إلى نظرية تحل الإشكاليات القديمة بكل يسر وبأقل عدد من المبادئ البسيطة.

ومؤدى الفرض الذي ينطلق منه هذا الكتاب والذي تثبته الوقائع وتبرهن عليه النصوص: أن الظاهرة الدينية ظاهرة "إلهية- إنسانية" تطورت عبر تعاقب الأديان لتلائم تطور الوعي الإنساني، وأن التطور لا يتعارض مع الألوهية، فربما تكون هذه طريقة الله تعالى في الكون، ولِمَ لا يكون التطور في الكون والدين والإنسان هو سنة الله؟ أليس ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: 29].

وربما يكون الجديد هنا أنه يمكن تفسير تطور الأديان دون الخروج من دائرة الإيمان، وبالانطلاق - ليس من العلم وحده- بل من النص الديني نفسه ومن تواريخ الوقائع الدينية.

وهذا الفرض المطروح، والذي يرفضه الوعي التقليدي بالدين، لا يتعارض في الحقيقة مع الإيمان، والمسألة تستلزم فقط تغيير منهج التفكير والنظر إلى الإيمان من منظور مختلف عن منظور الأخوة الأعداء: الأصوليين والعلمانيين، والمتدينين التقليديين والتطوريين التقليديين.

وتطور الأديان الذي نتحدث عنه هو التطور المحكوم بمنطق التطور العقلي، فمثلما يسير العقل نحو وحدة المعرفة الإنسانية ووحدة "المبدأ" في العلوم، فإنه يسير نحو وحدة الألوهية في الدين؛ فالله هو الذي يحقق أكبر وحدة ممكنة للعقل في فهم الوجود، على غرار العلوم التي تسعى في قوانينها إلى رد الكثرة إلى الوحدة، ورد المشروط إلى اللامشروط، ورد المحسوسات

والجزئيات إلى مبـدأ عام واحد ومعقول ومجرد هـو «القانون العلمي» الذي يفـسر مجموعـة من الظواهـر، وربما تصـل البشريـة يومًا مـا في العلوم إلى «القانون الأعم» الذي يفسر كل الظواهر الكونية، ويضم تحته كل القوانين الفرعية، من خلال «علم شامل» يضم كل العلوم معًا.

إذن ربما يمكن الحديث عن تطور الأديان دون الخروج من دائرة الإيمان، وربما تكون هذه النظرية، ويكون هذا المنهج في التفكير- أحد مفاتيح حل الصراع بين الأخوة الأعداء: الأصوليين والعلمانيين!

إن مفهـوم الإيمـان الكوني بالله الأحـد الذي يملأ الكاتب لـن يؤثر على بـذل كل جهده للالتـزام بالمنهج العلمي وحدود النظريـة العلمية والتفكير العلمي، وسوف يتمسك بالعلم وتاريخه بمقدار تمسكه بالإيمان وحدود وقائعه التاريخية، في محاولة تقديم نظرية تكشف «سر» التحول في الوعي الديني من الكثرة إلى الوحدة (مثل العلم الطبيعي)، ومن الشرك إلى شـبه التوحيد، ومن شـبه التوحيد إلى التوحيد، ومن التوحيد غـير التنزيهي إلى التوحيد الغامض التشـبيهي، ومن هذا التوحيد الغامض التشـبيهي إلى التوحيد الواضح العقلي الخالص.

وكلما كان التوحيد خالصًا، أي مسـتبعدًا لتشبيه الله بالإنسان والطبيعة، ومستبعدًا للوسطاء والهيئات المعاونة والقوى المضادة والسحر والقوى الخفية التي تتدخل في الطبيعة وحياة الإنسـان، كان الدين أرقى وأكثر انسجامًا مع طبيعـة النقطـة القصوى التي وصل إليها العقل في تطـوره نحو المبدأ الواحد المجرد الذي يقف وراء كل الظواهر.

إن منطق تطور الدين في العقل، يبدأ من ديانات الكثرة ويتطور تدريجيًّا

إلى ديانـات التوحيـد، وديانـات الكـثرة التي يبـدأ منها العقل هـي ديانات الطبيعة، وداخل ديانات الطبيعة نفسها.

يحدث تطـور من عبـادة الطواطـم والحيوانات وأرواح الأسـلاف، إلى عبادة مظاهر الطبيعة. وفي كل مراحلها الداخلية كان الامتزاج واضحًا بين الطبيعي والإلهي. أى أن الإنسـان هنا لا يدرك حقيقة الظواهر الطبيعية، ولا يحاول تفسـيرها وفق قانون العلية، و إنما يفسرها عـلى أنها قوى عاقلة فاعلة بذاتها، خصوصًا أن تعدد أحوال الظواهر الطبيعية بين أحوال مفيدة وأحوال ضـارة، والحـوادث الكونية المفاجئة مثـل الزلازل والبراكـين والفيضانات والصواعق والعواصف، ينشـئ حالة من الخوف من المجهول عند الإنسان، ونظـرًا لقصور منطقه العقلي، فإن ذلك كله يسـتثير خياله الذي يقوم بدوره بتأليه ظواهر الطبيعة، أو بإعطاء الألوهية صفات الطبيعة. وتشتمل ديانات الطبيعـة على ديانـات شركية تعدديـة، وفي مرحلة متقدمة منهـا يوجد فيها ديانات التسلسـل الهرمي للآلهة، وهي التي تؤمن بتعدد الآلهة لكنها تخضعها لإلـه أكبر، فهي أديان الاعتقاد التراتبى في الآلهة، لكنها لا تزال آلهة ممتزجة بالطبيعة. وسوف تتحول في المرحلة التالية فتصبح على شاكلة البشر.

فيرتقي الوعي إلى ديانات التشبيه وفيها عبد الإنسان آلهة ذات مواصفات إنسـانية لكنهـا أعلى قدرة.. آلهة ذات إرادة تشـبه الإرادة الإنسـانية، لكنها أكبر من إرادته.. مرتبًا إياها ترتيبًا هرميًّا يقف في أعلاه إله أكبر، وظهر هذا الإله في بعـض الديانات ككبـير للعائلة، وفي أحيانٍ أخـرى ككائن يتجلى و يتجسد في آلهة أخرى لكل منها وظيفة واختصاص.

فالعقل في هذه المرحلة يقيس طبيعة الآلهة على طبيعة الإنسـان و إرادته

التي تتغير من خير إلى شر، ومن شر إلى خير. ويدفع الخوف خياله لتجسيد الألوهية تجسيدات شخصية، وبنوع من الإسقاط، يعطى لها صفاته، ويسقط عليها رغباته، فيظنها على شكل بشر له قوى عظيمة، حيث يعطيها صفات بشرية مضخمة من حيث درجة القوة واستمرارية البقاء، وبالنوع نفسه من الإسقاط كان يعتقد أنه يمكن استرضاؤها بوسائل الاسترضاء الإنساني رغبة في اجتذاب خيرها واتقاء غضبها. ومن هنا يلجأ إلى الأضاحي والقرابين والنذور. على أن إرضاءها لم يكن هو الهدف، بل كان الهدف هو أن يعيش آمنًا سعيدًا، والآلهة إن رضيت عنه ستحقق له هذا.

إذن يتحول الوعي في هذه المرحلة بديانات التسلسل الهرمي للآلهة من التصور الطبيعي إلى التصور الإنساني، وتماثل بنية مجمع الآلهة بنية الأسرة أو بنية الدولة، مثل الديانة الإغريقية القديمة التي تقول بتعدد الآلهة لكن تجعل فوقها إلهًا أكبر هو رب الأرباب، وهو زيوس. ومثل بعض الديانة الرومانية، ومن قبلهما بعض الديانات المصرية القديمة.

ثم يرتقي الوعي إلى أديان التعالي.. أديان التوحيد أو الوحدة.. وداخل أديان التعالي نفسها يرتقي الدين من التوحيد غير الخالص إلى التوحيد الخالص، ومن الإله القومي(نسبة إلى القوم) إلى الإله العالمي، ومن التوحيد المعقد الملغز إلى التوحيد الواضح والصرف.

ويبرهن هذا الكتاب على أن العقل الديني بدأ رحلته من تصور طبيعي إلى الألوهية، ثم دخل في تصور إنساني لها، ثم تجاوز هذا المستوى إلى التعالي بتصوره للألوهية عن الطبيعي والإنساني.

وحسب تلك النظرية فإن المجموعات الدينية، تبدأ بالأديان الطبيعة

التـي تنظر إلى الألوهية على أنها ممتزجة بالطبيعة وتخلط بينها وبين الظواهر أو الكائنات الطبيعية.

ثم مجموعة الأديان التشبيهية التي تشبه الآلهة أو الإله بالبشر.

ثـم مجموعة أديان التعالي عـلى اختلاف بينها بدرجة ما أو أخرى في مدى تحرر مفهوم الإلهي في الوعي من المفاهيم الطبيعية والتشبيهية.

وسـواء سرنا بمنطق التحـول التدريجي من الكـثرة إلى الوحدة، أو بمنطق التحول التدريجي من المحسـوس إلى المعقول، فسـوف نجد أن تتابع الأديان لـن يختل: من ديانات الطبيعة إلى ديانات التشـبيه ثم أديان التعالي. مما يؤكد أنها قصة العقل الباحث عن الوحدة، والوحدة لا توجد في المحسوس والعيني والنهائي، بل توجد في المعقول والمجرد واللانهائي.

ومن ثـم تخضع الأديـان لقانون التطـور الذي يحكم تطـور الحضارات البشرية وما تمر به من نمو ثم انحدار واضمحلال.

وعندمـا يبلغ الوعـي الديني نضجـه مع ديـن الوعي الناصـع، ويتحول التوحيـد إلى عقيدة بلا أسرار، ثم تطرأ عناصر شركية وضعية على تصورات أتباعه في مراحل الاضمحلال، لا يكون الإنسان بحاجة إلى دين جديد، لأن الديـن الناصع موجود، لكن المشـكلة هي اضمحلال وعـي أتباعه، ومن ثم يكون الإنسـان بحاجـة إلى فهم جديد للدين يخلصه مـن العناصر الوضعية فيه، أي بحاجة إلى من يجدد له أمر دينه.

وتحـول الوعـي من الأديان الجزئيـة والغامضة والتي لا يـزال فيها خلط بين الإلهي والإنسـاني، إلى دين التوحيد الكلي والواضـح والألوهية المتعالية

المنزهـة، أي الدين الذي يمثل الطور الملائم لإنسـانية ناضجة- يوازيه تحول مـن نـوع آخر هو التحـول في منطق الاسـتدلال، من منطق الأسـطورة إلى منطـق الواقع، ومن منطق الحس إلى منطق البرهان العقلي، ومن الاسـتدلال بخوارق الطبيعة إلى الاسـتدلال بنظام الطبيعة، ومن منطق الحواة إلى منطق عدم التناقض؛ ومن المعجزات الحسـية إلى المعجـزة البيانية، ومن المعجزات المؤقتـة إلى المعجزة المسـتمرة، ومن الكتاب الذي يلتمـس دليلاً من خارجه إلى الكتـاب الذي يلتمس دليـلًا من داخله، ومن توحيـد غامض يعتمد على التسليم إلى توحيد مطلق مستند إلى الاستدلال البرهاني، ومن منطق «آمن ثم تعقل» إلى منطق «تعقل ثم آمن».

لكن في كل الأحـوال نلاحظ أن ثمة اتفاقًا بين ديانات الطبيعة، وديانات التشـبيه، وأديان التوحيد المتعالي، عـلى وجود قوة عاقلة في العالم، فالألوهية هي الموضوع الرئيسي للأديان بعامة، باستثناء بعض الفرق البوذية والطاوية والكونفوشيوسية التي لا تعتقد في الألوهية.

أ. د. محمد عثمان الخشت

أستاذ فلسفة الدين والفلسفة الحديثة والمعاصرة
نائب رئيس جامعة القاهرة لشئون التعليم والطلاب

مقدمة

تعد هذه الدراسة أول محاولة لتقديم مقارنة شاملة بين الأديان والفلسفات والعلوم الاجتماعية، فمن قبل كان التركيز إما على مقارنة الأديان وحدها، أو مقارنة الفلسفات وحدها، أو دراسة الدين من منظور فلسفي في الفرع الفلسفي الشهير «فلسفة الدين»، أو دراسة الدين من منظور علم اجتماعي أو إنساني واحد مثل علم النفس الديني أو علم الاجتماع الديني أو غيرها من العلوم. أما هذه الدراسة فتسعى إلى تقديم رؤية أكثر شمولًا لهذه المجالات فتضمها في حقل واحد ربما يتيح الفرصة لرؤية أوسع للنظر إلى العقائد الإنسانية من أكثر من زاوية، خصوصًا مع عدم إغفال هذه الدراسة لمنجزات علم الاجتماع الديني، وعلم النفس الديني، والأنثروبولوجية الدينية.

وإذا كان علم مقارنة الأديان قد استمر لمدة طويلة مرتبطًا بالدفاع عن عقائد معينة، حيث كان جزءًا من اللاهوت أو علم أصول الدين أو علم الكلام، ثم تحول إلى علم وصفي في العصور الحديثة، فإن هذه الدراسة تأمل إلى توسيع أفق علم مقارنة الأديان ليتحول من مجرد علم وصفي إلى علم نقدي فلسفي، يجمع بين الوصف العلمي والتحليل الفلسفي والنقد العقلي الملتزم بمعايير المنطق، خصوصًا معايير الاتساق الذاتي في البناء الداخلي للدين أو معايير الاتساق مع الواقع الخارجي. وسوف نوظف تلك المعايير لا في

شـكلها الكلاسـيكي، و إنما في أشـكالها الأكثر تطورًا في العصـور الحديثة. فضـلًا عـن مقارنة ما تقولـه الأديان عن العـالم وما تقدمه منجـزات العلوم الطبيعيـة من قوانين تـم ثبوتها بطرق وصفية، ومن ثم يخـرج منها كل ما لا يـزال في طـور النظريـة أو التجريب. ونظـرًا لأن مجال المقارنـة مع العلوم الطبيعية واسـع جدًّا، مما تضيق عنها صفحات هذا الكتاب، فسـوف نفصّل فيها القول في كتاب منفصل إن شاء الله تعالى.

لكن ربما يسأل القارئ: وما أهمية هذا في عصر تسود فيه المعرفة العلمية الوضعية؟

لأنه رغم التقدم العلمي الكبير الذي حققته الإنسانية لا يزال الدين أمرًا مشـوقًا وجذابًا لكل العقول، سـواء أكانت هذه العقول تؤمن به أم تكفر. وبالرغم من كل الهجـمات الضارية التى تعرضت لها الأديان، فإنها تمكنت من الاسـتمرار فى الحياة، والخروج من الأزمات والاختبارات الكبرى أكثر صلابة وأعز سـندًا؛ حتى إن كل اختبار يتعرض له الدين، يغدو عاملاً فعالاً فى تطهير الدين لنفسـه من العوالـق والبدع والأحمـال التاريخية والتوظيف السـياسي المغـرض ولعبة المصالح المتدنيـة، بدلاً من أن يهدمـه أو يحصره فى زاوية ضيقة .وربما يرجع ذلك - من بين ما يرجع - إلى أن الدين يقدم الإجابة على هموم الإنسان الأزلية:

الإنسان .. من أين؟ .. و إلى أين؟

العالم .. ما حقيقته؟ .. و إلى أين يسير؟

الوجود .. لِمَ كان؟ .. ولِمَ لَمْ يكن بالأحرى عدمًا؟

الله .. هل هو كائن؟ .. وماذا يريد منا؟

ونظـرًا لأن الديـن هو المجال المعـرفي الوحيد - حتـى الآن - القادر على تقديـم إجابات شـاملة على تلك الهموم، فإنه لمن المغالطـة الظن بأن الكهنة اخترعـوا الأديان لكي يخدعـوا الشـعوب؛ فالدين غير المحمل بالتفسـيرات والتوظيفات المشـبوهة لا يمكن اعتباره أفيونًا للشعوب؛ لأن الدين ما هو إلا حركة سـير الروح الإنسـاني نحو الروح اللامتناهى؛ بمعنى أنه مسار الفكر الـذي لا يكتفي بأن يفكر في المادة والحس؛ بـل يقفز إلى عالم المجرد. و إذا قال الملحد إنه لا ينبغى أن يكون هناك مثل هذا الانتقال؛ ومن ثم لا ضرورة للدين، فكأن لسـان حاله يقول إنه لا ينبغـي أن يكون هناك تفكير (حيث إن التفكير هو انتقال من المحسوس إلى المجرد). والواقع أن الحيوان لا يقوم بمثل هذا الانتقال؛ فهو لا يرتفع مطلقًا عن مسـتوى المحسوس المادي؛ ولهذا فإنـه بغير دين. أما الإنسـان فبحكم تكو ينه الأنطولوجي، يسـعى لتمزيق سلسلة المحسوسـات المتناهية، والارتفاع فوقها نحو اللامتناهى الذي بدونه لن يكتسـب الوجود معنى يمكن أن يعيش الإنسـان مـن أجله. و يتجلى هذا اللامتناهى في الدين بوصفه الله.

و يسـعى هذا الكتاب إلى توظيف المناهج العلمية والفلسفية الحديثة في دراسة الأديان. وقد استفاد بشـكل واضح من جهود مناهج النقد التاريخي، ومناهج نقد النص، والنقد الشـكلي. كما فحص واستفاد في الوقت نفسه من جهود المدرسـة التحليلية، واللاهوتيـين الأحرار، والعقلانيـين، ونتائج علم الاجتـماع الديني وعلـم النفس الديني... إلـخ. ولذا جاء منهجـه في البحث مركبًـا من عـدة مناهج جمع بينهـا في توليفة علمية متوافقـة، ومن هنا نجده تارة وصفيًّا، وتارة تحليليًّا، وتارة مقارنًا نقديًّا، حسب السياق الذي يبحث فيه والموضوع الذي يتناوله.

ويبقى في النهاية ضرورة الإشارة إلى أن هذا الكتاب هو خلاصة مجموعة كبيرة من الأبحاث والدراسات قمت بها خلال العشرين سنة الأخيرة، وإذا كان أغلب هذه الأبحاث مكتوبًا بلغة أكاديمية متخصصة، فقد حرصت على تقديمها للقراء في هذا الكتاب بلغة أكثر بساطة ووضوحًا دون التفريط في مستوى العمق.

والله من وراء القصد.. وهو المنتهى..

أ. د. محمد عثمان الخشت

أستاذ فلسفة الدين والفلسفة الحديثة والمعاصرة